الفضاء الحساني والتراكم المعرفي

سيدي احمد ولد احمد سالم

مخطوط من النيجر

التأليف في الفضاء الحساني: التعريف والنشأة والمكان

نعني بالفضاء الحساني مجالا ترابيا متسعا من ميزاته الأساسية تداول ساكنته للهجة الحسانية فضلا عن تقاربهم في ظواهر أخرى اجتماعية وتاريخية ودينية. ويجمع هذا الفضاء، فضلا عن موريتانيا، أقاليم المغرب الجنوبية بالإضافة إلى منطقة تيندوف في الغرب الجزائري وإقليم أزواد في شمال مالي. وقد أطلق بعض المؤلفين قديما على هذا الفضاء «بلاد شنقيط»، يقول صاحب الوسيط معرفا ببلاد شنقيط: «ويحد هذا القطر شمالا الساقية الحمراء وهي تابعة له، وجنوبا قاع ابن هيبه، وهو تابع له أيضا، وغربا بلاد السينغال المعروفة عند أهل شنقيط بأندر، وهي خارجة عنه»[1].

التأليف بالفضاء الحساني

عرفت القرون الثلاثة الماضية إنتاجا ثقافيا متميزا فيما نطلق عليه الفضاءَ الحسانيَّ ذا الطابع البدوي. ولا يمكننا تجاوز هذه الملاحظة دون التنويه بأن هذا الإنتاج الثقافي يترك الانطباع أن نظرة المؤرخ الجليل ابن خلدون حول توحش البدو وبعدهم عن التأليف ليست على إطلاقها، خصوصا عند حديثه عن العلوم وأصنافها، والتعليم وطرقه، وتقريره أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة[2]. فهذا الفضاء الصحراوي كان مهادا لفقهاء كبار وعلماء أجلاء ولمدارس أو ما بات يعرف بالمحاضر، وهي مدارس تقليدية جامعة، نشطت نشاطا لا شبيه له وتخرج منها الكثير من الفقهاء واللغويين والشعراء، وأسست مكتبات كبيرة من المخطوطات النادرة وأنتجت مؤلفات عديدة[3].

من مميزات هذا التراث الحساني أنه تراث بدوي يرتبط إنتاجه بالنسق الاجتماعي السائد حيث إن فئة الزوايا من بين فئات المجتمع البيضاني هي التي كانت تحتكر التعلم والتعليم والتأليف، وهي في ذلك إنما تشكل امتدادا لحركة المرابطين التي كرست انتشار الإسلام ورسخت تدريس المعارف العربية الإسلامية بهذه المنطقة، وجمع المكتبات المخطوطة، في حين كان للفئات الأخرى أدوار لا تقل أهمية في تعاطيها مع وظائف أخرى حددها لها هذا المجتمع البدوي.

ومن مميزات هذا التراث، خاصة في جانبه التأليفي، وهو الذي يعنينا هنا أكثر من غيره، أن أغلبه يوجد في مدن صحراوية شكلت خلال القرون الماضية محطات ومواقف للتجارة عبر الصحراء ونعني: ولاتة وشنقيط وودان وتيشيت والتي ظهرت ما بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر الميلاديين.

وفي حين لا يزال تراث ولاتة وتيشيت من مؤلفات ومخطوطات بحاجة إلى عناية أكثر فقد حظيت مكتبتا شنقيط وودان ومخطوطاتهما بحظ لا بأس به من التعريف، وإن كانت وضعية مكتبات ودان المخطوطة أصعب من مثيلاتها في شنقيط لما تعرضت له ودان من هجرات سكانية وبما عانته من تصحر أفقدها مع الزمن الكثير من حيويتها فتركها من تركها متجها نحو تيشيت، ولذلك انتقل الكثير من ملاك المخطوطات من ودان إلى تيشيت ونقلت تآليف ودانية نحو هذه المدينة. ففي منتصف القرن التاسع عشر وقع تنافس حاد بين بعض السكان حول إمامة مسجد المدينة، ومن ذلك كتاب موهوب الجليل على مختصر خليل، للفقيه سيدي أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الوداني الحاجي كان حيا سنة 933هـ / 7-1526، المترجم له في كتاب فتح الشكور[4]، وهو أقدم مؤلف موريتاني وتوجد منه نسخة في مكتبة أهل دادّه بن يده بتيشيت أو مكتبة الأوقاف وأخرى في مكتبة أهل بويا الشريف بتيشيت. ومن أمثلة المكتبات الودانية التي هاجرت نحو تيشيت مكتبة أهل الناجم وهي أسرة من إدو الحاج، وتمتاز هذه المكتبة بكثرة وثائقها. كما توجد مكتبة الرحالة العالم المؤلف الطالب أحمد بن طوير الجنة الحاجي الوداني (توفي في رمضان 1265هـ / يوليو 1849م) في مدينة شنقيط. وقد اشتهرت المدينة بمؤلفيها المتميزين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كابن طوير الجنة وشيخيه أحمد سالم (توفي 1239هـ / 1823م) والسالك (1245هـ / 1829م) ابني الإمام الحاجيين، ومحمد الأمين بن حمه ختار وأخوه بانُّمو والشيخ الأمين بن الطالب بن اخطور...

أما مدينة شنقيط فمن أعرق المدن الموريتانية وبها من المؤلفين والتآليف الكثير فقد أنجبت من بين من أنجبت الطالب محمد بن المختار بن بلعمش العلوي (توفي 1103هـ / 1691م)، وأحمد بن البشير الغلاوي (توفي 1276هـ / 1859م) وسيدي محمد بن حبت الغلاوي (1288هـ / 1871م) والشيخ بن حامني الغلاوي (1318هـ / 1900م). وتعتبر مكتبة أهل

حبت بشنقيط من أبرز وأهم مكتبات المخطوطات والتآليف في موريتانيا من حيث التنوع والأهمية وكثرة الوثائق، فهي تضم 631 عنوانا مع أن الرواية الشفهية تذكر أن عدد ما فيها بلغ في عهد مؤسسها سيدي محمد 1400 مخطوط وأصبح العدد في عهد ابنه الشيخ (1299هـ / 1882م) 1300 مخطوط.

وأقدم محاولة علمية لجرد وفهرسة وتعريف مخطوطات شنقيط كانت سنة 1950 حين نشر المختار بن حامدن وألبير لَريشْ مقالا بالفرنسية في نشرة المعهد الوطني لإفريقيا السوداء عن مكتبات شنقيط وفي هذا المَقال معلومات موجزة ومفيدة حول أنماط المخطوطات. كما أن فيه ملحقا أعده ابن حامدن وهو عبارة عن جرد بيبليوغرافي للمخطوطات الشنقيطية يركز على الجهة المالكة للمخطوط وعدد المخطوطات التي بحوزة هذه الجهة أو تلك وملاحظات عامة[5].

ولا يمكن أن نتحدث عن المكتبات الخاصة التي تزخر بالمؤلفات الموريتانية دون الالتفات إلى مكتبة أهل الشيخ سيديا في مدينة بتلميت، فهي وإن كانت غير موجودة في المدن الموريتانية القديمة فإنها توجد في منطقة الترارزة وقد أسسها الشيخ سيديا بن المختار بن الهيبة الأبييري (توفي 1286هـ / 1868م)[6].

وفي سنة 1966، وبعد إنشاء المكتبة الوطنية بنواكشوط، قام المؤرخ ابن حامدن أيضا ومعه خبير من اليونسكو يدعى آدام هيموفسكي، وكان معارا من طرف المكتبة الملكية باستوكهولم، بوضع جرد سمياه: «الفهرس المؤقت للمخطوطات المحفوظة في موريتانيا». وقد راجعه هيموفسكي سنة 1968. وقد استطاع المؤلفان حصر 2054 تأليفا مخطوطا لحوالي 394 مؤلفا موريتانيا[7]. وأقدم موريتاني مذكور بهذا الفهرس هو اند عبد الله بن سيدي أحمد بن محمد الغيث المحجوبي الولاتي المتوفى سنة 973هـ / 1530م وآخر المؤلفين الموريتانيين المذكورين به هو محمد يحيى بن سليمة اليونسي النعماوي ليلة الإثنين 22 ذي الحجة سنة 1354هـ، الموافق 6 مارس 1936م. وهذا العمل يمكن أن نسميه دليل المؤلفات الموريتانية المخطوطة.

ولابن حامد محاولة أخرى وهي قائمة المخطوطات الفقهية الموريتانية حيث حدد في هذه القائمة أربعة عناصر هي اسم الكتاب واسم مؤلفه وتاريخ وفاته (إن كان قد توفي) ثم يذكر مظنة وجود المخطوط. وقد أعد ابن حامد هذه القائمة في الستينات إلا أنها لم تر النور حتى سنة 1981 حين نشرها الدكتور محمد المختار ولد اباه في كتابه «دراسات في تاريخ التشريع الإسلامي في موريتانيا».[8]

وعلى المستوى الرسمي يعود الاهتمام بالتآليف والمخطوطات الموريتانية إلى عهد قريب، فأول جهد علمي لجمعها وصيانتها وفهرستها لاحقا كان محاولات المعهد الموريتاني للبحث العلمي المتأسس سنة 1975 في نواكشوط.

يمكن أن نقول إن أغلب هذه التآليف الموريتانية موجودة بيد أسر مؤلفيها في مكتبات خاصة وفي بعض الأحيان توجد في مؤسسات رسمية كالمعهد الموريتاني للبحث العلمي ومعهد الدراسات الإسلامية أو بعض المؤسسات الوقفية[9]. وفي سنتي 1988 - 1989 قام سيدي أحمد بن أحمد سالم وشارل استيوارت وأحمد بن محمد يحيى بإعداد فهرس عام لمخطوطات المعهد الموريتاني للبحث العلمي. ولم ينشر بعد هذا الفهرس إلا أنه توجد منه نسخة إلكترونية ضمن مشروع المخطوطات العربية فى غرب إفريقيا الذي أعدته جامعة إلينوا الأمريكية[10] وتبلغ محتويات الفهرس 3143 عنوانا جمعت من 72 مكتبة خاصة أغلبها من منطقة الترارزة.

ويعد هذا العمل امتدادا لمجهود قام به استيوارت قبل ذلك في سنتي 1987 و1988 حين أنجز فهرسة مكتبة أهل الشيخ سيديَ الموجودة ببوتليمت (والتي سبق أن اهتم بها الأستاذ لويس ماسينيون في بداية القرن العشرين). وقد زاد هذا الفهرس قليلا عن 2000 مخطوط. وعنوان هذا الفهرس العربي الإنجليزي الذي أعده الأستاذ شارل استيوارت هو (فهرس مكتبة هارون ولد الشيخ سيديَ ببوتلميت). ولم ينشر هذا الفهرس.

وقد أعد الباحث محمدو بن الداه بن ايدة فهرسا لمخطوطات مدينة ولاتة ولم يظهر بعد حسب علمي. كما قام أحمد بن محمد يحيى بإعداد فهرس آخر للمخطوطات الموجودة بمكتبات تيشيت في صيف سنة 1997. وقد تم بالفعل هذا الفهرس وكان بتمويل من اليونسكو إلا أنه لم ينشر كذلك حسب علمي. وقد قام مركز جمعة الماجد بدبي بالإمارات العربية المتحدة، ضمن برنامجه الخاص بترميم وتصوير المخطوطات العربية، بإنشاء مبنى بتيشيت لحفظ المخطوطات وترميمها وتصويرها. وقد أحصى هذا المركز أكثر من 4 آلاف مخطوط بهذه المدينة.

بدأت سنة 1981 مع مشروع للميكروفيلم أي تصوير المخطوطات على شكل أفلام؛ حيث قام المعهد الموريتاني للبحث العلمي بالتعاون مع جامعة تُوبِنْغَنْ بألمانيا بتحضير مكتبة للميكروفيلم وبإعداد فهرس لبعض المخطوطات الموريتانية التي تم تصويرها وتحميضها. وقد أشرف الباحث الألماني أُلْرِيخْ رُوبشْتُوكْ (Ulrich Rebstock) بالتعاون مع الأستاذ أحمد بن عبد القادر والأستاذ رَايْنَرْ أوسْوَالْدْ بإنجاز فهرس من 2603 مخطوطا مأخوذا ومصورا من 100 مكتبة موريتانية من مختلف مناطق البلد. وقد استمر هذا المشروع الموريتاني الألماني أربع سنوات حيث انتهى سنة 1984. وقد تمت طباعة جزء أول من هذا الفهرس بالعربية تحت عنوان «فهرس المخطوطات العربية بموريتانيا» وصدر ببيروت سنة 1988 وفيه ذكر مائة مخطوط مع ذكر مختلف العناصر المتعلقة بكل مخطوط.

وقد أصدر الأستاذ أُلْرِيخْ رُوبِشْتُوكْ الفهرس كله سنة 1989 باللغة الألمانية وهو تحت

عنوان: «جرد المخطوطات العربية بموريتانيا»[11]، وكان من نتائج المشروع الموريتاني الألماني أن تم تزويد المعهد الموريتاني للبحث العلمي وجامعة توبنغن بألمانيا بمكتبة على الميكروفيلم لجميع المخطوطات المذكورة في هذا الفهرس.

وتم سنة 2002 في إطار مشروع صيانة وتثمين التراث الثقافي الموريتاني الذي يموله البنك الدولي بجرد ثلاثة وثلاثين وسبعمائة وستة وسبعين مخطوطا موزعة على ست مائة وخمس وسبعين مكتبة منتشرة في 289 موقعا في 91 بلدية موريتانية من ضمن 48 مقاطعة.

ويأتي كتاب الباحث الألماني ألريخ روبشتوك: «تاريخ الآداب البيضانية» بأجزائه الثلاثة كمحاولة هامة للتعريف بمؤلفات هذا الفضاء الحساني، ونرجو أن يترجم هذا النص المميز من اللغة الألمانية إلى اللغة العربية حتى تتسع دائرة الاستفادة منه[12].

معجم التآليف والمؤلفين في الفضاء الحساني

يأتي هذا المعجم ليكون خامسا لأربعة معاجم أو مجلدات أعدها الباحث والمستشرق هانويك بالتعاون مع بعض الباحثين والأساتذة بالمناطق التي شملتها المعاجم، وقد نشرتها دار «بريل» العريقة التى تتخذ من مدينة لايدن بهولندا مقرا لها، والمجلدات الأربعة هي:

المجلد الأول يغطي شرق إفريقيا مركزا أساسا على السودان ومتتبعا التآليف والمؤلفين في هذا البلد من نشأتها حتى 1900. ويضم اثني عشر فصلا[13].

يتعامل المجلد الثاني مع الثقافة العربية في أفريقيا الوسطى أي المنطقة الواقعة بين السودان ومالي. ويخصص الجزء الأكبر من العمل لنيجيريا التي أنتجت ثقافة عربية إسلامية ضخمة ومتنوعة. كما يتعرض لهذه الثقافة في تشاد والكاميرون والنيجر.[14]

أما المجلد الثالث فيتناول الثقافة الإسلامية تآليف ومؤلفين في شمال شرق أفريقيا وما أنتج فيها بالعربية وباللغات المحلية العديدة التي منها الأمهرية والصومالية والتيغرية... ويغطي المجلد إريتريا وجيبوتي وإثيوبيا والصومال[15].

المجلد الرابع ويتناول الإنتاج العلمي والأدبي للمؤلفين ومؤلفاتهم في غينيا كوناكري ومالي، والسينغال والنيجر، وغانا[16].

أما هذا المجلد الخامس فيقوم بإعداده كل من الباحث شارل استوارت ومعد هذه الورقة بالتعاون مع بعض الباحثين من المغرب والسينغال وموريتانيا وأخص أساسا الباحث الدكتور محمد النوحي وأبو بكر امبنغ وغيرهما...

يهدف المشروع إلى إنجاز معجم عام للمؤلفين وتآليفهم في الفضاء الحساني وهو موضوع متسع. ومع أن هناك إشارة مفيدة ذكرها الباحث الفرنسي المسلم فينسان مونتَيْ

(Vincent Monteil) في مقال له بعنوان «المخطوطات التاريخية العربية الإفريقية» منشور بمجلة المعهد الأساس لإفريقيا السوداء (IFAN) إلى أنه التقى بابن حامد وهايموفسكي بنواكشوط سنة 1965 وذكرا له أنهما يقدران ما ألفه الموريتانيون من تآليف ما زالت مخطوطة بثلاثة آلاف (دون عد الدواوين الشعرية)[17] وقد تبين لنا أن هنالك عددا أكثر من ثلاثة آلاف مؤلَّف.

لا نعرف بداية التأليف في هذا الفضاء وإن كنا نعلم أن حركة التأليف متأخرة بالنسبة لغيرها من حركات التأليف في المنطقة المغاربية، لكن الباحثين متفقون على أن هذا الفضاء عرف مع حركة المرابطين وداعيتها الشهير عبد الله بن ياسين (توفي 451هـ/ 1056م) أول اهتمام بالتعلم والتعليم وهو ما سيطلق عليه لاحقا في هذه المنطقة «المحظرة». ولن نصل إلى القرن الحادي عشر الهجري حتى نجد ذكرا لتطور معرفي وثقافي في شنقيط حيث يذكر مؤرخو الثقافة الشنقيطية مجيء شخصية معرفية جليلة تدعى «الشاب الشاطر» لمدينة شنقيط، ويبدو أنه قدم لهذه الحاضرة حاملا الكثير من الكتب الأندلسية والمغاربية لم تكن معروفة في الفضاء الحساني. ومنذ ذلك التاريخ تأسست التقاليد المعرفية تعليما وتعلما وتأليفا. ينبغي أن لا ننسى أن من بين محتويات مكتبة أهل حبت بشنقيط نسخة قديمة من كتاب «تصحيح الوجوه والنظائر من كتاب الله العزيز» المنسوب للحسين بن عبد الله العسكري (395هـ/ 6-1005م) وهو خال أبي هلال العسكري (توفي 400هـ/ 1009م)، وقد نسخ سنة 480هـ/ 1087م بغرناطة. كما توجد بنفس المكتبة نسخة رائعة من مقدمة ابن رشد (520هـ/ 1126م) منسوخة بغرناطة سنة 736هـ/ 1335م.

تدور تآليف هذا الفضاء حول مختلف المعارف العربية الإسلامية التقليدية. ويلخص المستشرق المختص في الثقافة في هذه المنطقة جون هانويك اهتمامات مؤلفيها بقوله: «بالمعنى العام يمكن أن نصنف الكتابات العربية في غرب أفريقيا تحت أربعة عناوين: التاريخي؛ والتربوي؛ والتعبدي؛ والسجالي»[18].

وهنالك تصنيف غير بعيد عن الصواب وهو أن أكثر هذه التآليف منصب على الفقه والنحو والتصوف بشكل خاص، فهي الميادين المعرفية التي يمكن أن نسميها: أمهات المعارف بالفضاء الحساني. كما أن ثلاث شخصيات شنقيطية كان لها الدور المحوري من حيث نوعية التآليف في هذه المجالات الثلاثة ومن حيث التأثير في المؤلفين اللاحقين وهي: المختار بن بونا الجكني (1220هـ/ 1805) في النحو، والشيخ سيدي المختار الكنتي (1226هـ/ 1811م) في التصوف وسيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي (1817 / 1233). وقد ظلت حركة التأليف تتوسع وتنتشر أفقيا منذ القرن الثامن عشر لتزداد في التاسع عشر وفي القرن الماضي باطراد.

واعتمادا على مراجعنا المذكورة في نهاية هذه الورقة فقد جردنا لائحة مطبوعة على برنامج «أكسيل» (Excel) تضم ما يناهز الألف وخمسمائة مؤلِّف، وهذه اللائحة هي مدونتنا الأساسية التي نعمل عليها لإعداد المعجم.

قمنا بتهيئة موقع إلكتروني خاص وطورنا له برنامجا بمساعدة المهندس محمد ولد البو، وتقوم فكرة الموقع على تنظيم قاعدة المعلومات التي بين أيدينا وهذا هو عنوان الموقع: http://westafricanmanuscripts.org/book/index.php.

ويخصص البرنامج لكل مؤلف صفحة توجد بها أربعة عشر مدخلا في الواجهة العربية ونفس المعطيات في الواجهة الإنجليزية وهي:

الإسم، أسماء بديلة، اللقب، النسبة، المنطقة، الشيوخ، التلاميذ، السيرة الذاتية، المصدر، التوثيق، تاريخ الميلاد، تاريخ الوفاة، تواريخ وفاة بديلة، فترة نشاط المؤلف.

وفي صفحة كل مؤلف خانة تحيل على صفحة داخلية خاصة بمؤلفاته وعند فتحها نجد تنظيما لقاعدة المعلومات المتعلقة بالتآليف مكونة من ستة مداخل في الواجهة العربية ونفس المعطيات في الواجهة الإنجليزية وهي:

العنوان، عناوين بديلة، الموضوع، مكان وجود المخطوط، وصف، مؤلفات أخرى.

كيفية إعداد المعلومات الخاصة بكل مدخل من مدخلات قاعدة المعلومات:

نقوم بجمع العناصر المذكورة أعلاه عن كل مؤلف ويكون ذلك في حدود 250 إلى 400 كلمة بحسب ما هو متاح من معلومات.

عند ذكر تآليف أي مؤلف ينوه ببعض أبرز إنتاجاته مما له شيوع في المحاضر الشنقيطية.

تتم الاستعانة غالبا بمجموعة من المصادر مثل فهارس المخطوطات الموريتانية التي أشرنا إليها، مثل عمل الأستاذ الألماني ألريخ روبشتوك والموقع الإلكتروني لفهارس الأستاذ الأمريكي شارل استيوارت فبفضلها يمكن أن نضع اليد على أهم المؤلفين ومؤلفاتهم.

الاستفادة من جميع ما هو متاح كموسوعة المؤرخ المختار بن حامد والدراسات الجامعية التي أعدها بعض الباحثين الجامعيين في المدرسة العليا للتعليم بنواكشوط، جامعة نواكشوط أو المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية أو بعض الجامعات المغربية والعربية... أو ما تم تأليفه خارج هذه الأطر والمؤسسات على شكل مبادرات شخصية مما قد يفيد هذا العمل ويكمل ما فيه من ثغرات.

جمعنا حتى الآن 426 نموذجا من خطوط هؤلاء المؤلفين وما زلنا في طور جمع هذه النماذج وسنقوم بإضافتها لاحقا عندما يتم تقديم النص للنشر الورقي.

التأليف في الفضاء الحساني والتفاعل الثقافي في المنطقة

تعكس حركة التأليف في المجال الحساني، لو نظرنا إليها في سياقها العام، تفاعلا حيويا مع مجالها المغربي شمالا والإفريقي جنوبا. وسأقف على بعض النماذج التي توضح الدور المغربي بشكل خاص في التواصل والتأثير في الفضاء الثقافي الحساني وأعني بالدور المغربي عناية السلاطين والملوك العلويين بالجوانب الثقافية والعلاقات التي كانت تربطهم بهؤلاء المؤلفين وتلك المحاضر، فضلا عن علاقات العلماء بالمغرب بنظرائهم في هذا الفضاء الحساني.

فالزاوية الكنتية المختارية بأزواد كانت على اتصال مستمر بالبلاط العلوي الذي كان من مصادر تزويد هذه الزاوية بالكتب. وكنت قد أشرت آنفا إلى دور الشيخ سيدي المختار الكنتي (1226هـ/ 1811م) في الحركة التأليفية في الفضاء الحساني، ولدي رسالة وجهها هذا الشيخ الكنتي للمولى السلطان محمد بن المولى عبد الله (توفي سنة 1204هـ/ 1790م). وكان الشيخ سيدي المختار يستقبل سنويا القوافل المحملة بالكتب من حواضر المغرب[19]. كما نجد ابنه وخليفته في الزاوية الكنتية الشيخ سيدي محمد (1241هـ/ 1825م) يراسل السلطان سليمان بن محمد (ت سنة 1238 هـ/ 1792م). وعندي رسالة وجهها الشيخ سيدي المختار الصغير بن الشيخ سيدي محمد (1263 هـ/ 1846م) للمولى السلطان عبد الرحمن بن هشام (توفي 1859م)، وقد قمت بتحقيق هذا النص ولم ينشر بعد. وفي هذه الرسالة ذكر للكتب والتآليف الشنقيطية التي كان المولى عبد الرحمن مهتما بها. ولا تنتهي علاقة الزاوية الكنتية عند هذا الحد بل نجد الشيخ سيدي أحمد البكاي بن الشيخ سيدي محمد (توفي في رمضان 1282هـ/ فبراير 1866م) يراسل المولى سيدي محمد بن عبد الرحمن (توفي 1873). فهنالك أربعة أجيال من مؤسسي الزاوية الكنتية عاصروا أربعة سلاطين علويين وراسلوهم وكان لتلك المراسلات تأثير هام حيث كان السلاطين يبعثون مكتبات لهؤلاء الأعلام الشناقطة.

وفي أيام المولى عبد الرحمن حل الشيخ سيديا بن المختار بن الهيبة الأبييري (توفي آخر يوم من سنة 1284 هـ/ الموافق 23 أبريل 1868م) بمراكش، والشيخ سيديا من كبار الشخصيات العلمية والصوفية في بلاد شنقيط. وقد نال حظوة عظيمة عند السلطان[20]. وقد جاء من المغرب بمكتبة تعتبر من أكبر المكتبات في المنطقة وقد تحدث عنها الشعراء، يقول بابه بن أحمد بيبه العلوي:

أضاءت بلاد الغرب لما أتيتـــــها وأصبح يشكو بعد ترحالك الغـرب
وجئت بكتب يُعجز العيسَ حملها وعندك علم لا تحيط به الكتـــب

وقد حل العالم الجليل سيدي عبد الله بن الحاج بن إبراهيم العلوي (توفي ليلة الجمعة 28 ربيع الثاني 1233هـ الموافق 6 مارس 1818م) أثناء رحلته الحجية التي استغرقت سبع

سنوات، منها ما قضاه في الحجاز ومنها ما كان بمصر ومنها ثلاثة أعوام بالمغرب. وقد توثقت صلاته يومها بالسلطان المغربي المولى سيدي محمد بن عبد الله العلوي. وقد ذكر سيدي عبد الله في كتابه «نوْر الأقاح في شرح فيض الفتاح» جانبا من علاقته بالسلطان المغربي قائلا: «وكان أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله بن أمير المؤمنين إسماعيل لا يتطير إذا سمع ما فيه الطيرة حتى إني كنت ليلة معه في المحاضرة في علم العروض حتى ذكرت له الخزم بالزاى، فذكره ذلك بعض حذاق أهل فاس بذلك الفن؛ فبعث إليه فسأله عن الخزم فصار يستشهد للسلطان بقوله:

اشددْ حيازيمك للمـــــوتِ فإن المـــــوت لاقِيكـــــا

فجعلت أرشده إلى شاهد غير ذلك ولم يطاوعني ولم يتفطن لما داخله من رعب الملك. ففطن لي السلطان فقال لي: خل عنه، ولم يتغير عن ذلك لقوة يقينه بالله تعالى».[21]

ويذكر سيدي أحمد بن أسمهو الديماني (توفي 1971) في كتابه «ذات ألواح ودسر» (مخطوط) أن المولى إسماعيل أهدى قبيلة أولاد ديمان خزانة من الكتب، ويضيف ابن اسمه: «وقد حدثني الأستاذ محمد سالم بن الما (ت. 1383هـ/ 1964م) أنه رأى بعض تلك الكتب بعينه وعليها طابع سلطان المغرب.»[22]

وفي نفس السياق يذكر ابن اسمهو الديماني علاقة ثانية بين هذه القبيلة وبين سلاطين المغرب حيث يقول: «وكذلك أهدى لهم حفيده محمد بن عبد الرحمن بخزنة».[23]

وينوه الرحالة الفقيه الطالب أحمد بن طوير الجنة الحاجي الوداني (توفي في يوليو1265هـ/ رمضان 1849م) في رحلته: «رحلة المنى والمنة» بلقائه بالسلطان المولى عبد الرحمن بن هشام وكيف أمر بتزويده بما يريد من الكتب[24].

وكان لفقهاء المغرب وأشياخه دور مشهود وتفاعل مع الحركة الثقافية في هذا الفضاء. فتذكر كتب التاريخ أن العالم الشنقيطي محمد سعيد بن تكدي اليدالي درس في «تافيلالت بجنوب المغرب خلال القرن العاشر الهجري، وعاد إلى منطقة القبلة (الجنوب الغربي الموريتاني) فنشر النحو هناك حتى لقب بالنحوي».[25]

وقد رحل سيدي عبد الله بن أبي بكر التنواجيوي (توفي 1145هـ/ 1732م) إلى الشيخ سيدي أحمد الحبيب السجلماسي فأخذ عنه القراءات العشر وعند عودته كثر الآخذون عنه وصار إمام المقرأ ببلاد شنقيط. وقد عاد الشيخ التنواجيوي بخزانة نفيسة كما يقول البرتلي في فتح الشكور[26].

وتشكل المؤلفات المغربية في مختلف الفنون ركنا أساسيا في المحاضر في الفضاء الحساني: فكانت إلى جانب تدريسها تشرح وتختصر وكانت إذن باختصار محركا هاما

للتأليف. من ذلك «النجوم الطوالع» لابن بري الرباطي والدرر السواطع للشوشاوي وهما كتابان في المقرأ.

ويعتبر «نظم المنشد المعين في الضروري من علوم الدين» المعروف اختصارا بابن عاشر طليعة المقررات المدروسة في المحضرة. ويعتد في شرحه على ميارة الكبير والصغير وعلى حاشيتي الوزاني وابن حاج حمدون على ميارة.

واعتمد فقهاء الفضاء الحساني على شروح المغاربة لمختصر خليل مثل: شرح التاودي وابن غازي والرهوني والبناني وكنون... والأمر نفسه ينطبق على الدراسات اللغوية والمنطقية...

كما كان مشرب التصوف في هذا الفضاء صادرا عن شيوخ وزوايا في المغرب خصوصا ما يتعلق بالشاذلية ومصدرها الزاوية الناصرية بتامكْروت أو القادرية أو التجانية التي مصدرها الشيخ سيدي أحمد التجاني دفين فاس.

يتضح من كل هذا أن مصدر اقتناء الكتب والروابط الصوفية وحركة التأليف بالفضاء الحساني كان على علاقة وثيقة بالمغرب سلاطين وفقهاء وأشياخا.

هوامش

1 - الشنقيطي، أ.: «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط»، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي ومكتبة منير، 1409 هـ/1989، ص 422.

2 - ابن خلدون، ع.، «المقدمة»، ط. الكشاف (بلا تاريخ، مصورة بالأوفست في منشورات مكتبة المثنى، بغداد، دون تاريخ، ص 429 - 430.

3 - يقول أحد أشهر مؤلفي بلاد شنقيط وهو المختار بن بونا الجكني (توفي 1220 هـ/1804 - 5) الشهير بمهارته في اللغة والمنطق:

ونحن ركب من الأشراف منتظم / أجل ذا العصر قدرا دون أدنانا
قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة / بها نبين دين الله تبيانا

4 - البرتلي، «فتح الشكور»، الترجمة 44، و بن حامدن م.، جزء إدوالحاج (موسوعة «حياة موريتانيا»، نسخة المعهد الموريتاني للبحث العلمي)، وروبشتوك في «تاريخ الآداب البيضانية» تحت رقم: 70، وابن البرا، ي.، الأعلام، الترجمة رقم: 555.

5 - Ould Hamidoun, M. et Leriche, A. : *Curiosités et Bibliothèques de Chinguetti*, in: Notes Africaines, n°48, Institut Francais d'Afrique Noire (IFAN), Dakar, 1950. Ce texte est reproduit par ce site: http://www.mr.refer.org/numweb/spip.php?article213.

6 - ولد أحمد سالم، س. أ. : «نفائس من المخطوطات والوثائق في مكتبة أهل الشيخ سيديا»، مجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد، العدد 31، رجب 1421 – أكتوبر 2000، دبي، ص 67 - 80.

7 - ابن حامدن وهيموفسكي: «جرد التآليف والمؤلفين» (طبعة سيريغرافية قديمة) وقد نقل الجرد الخليل النحوي في كتابه «بلاد شنقيط» من ص 535 إلى 624.

8 - Ould Bah, M. : *La littérature juridique et bévolution du malikisme en Mauritanie*, Faculté des lettres et sciences humaines, Université de Tunis, 1981., Sixième série,, Philosophie-littérature, V. 19.

9 - بعض المؤلفات الموريتانية المخطوطة توجد بمكتبات في المغرب وفي مالي والنيجر وفرنسا والسعودية.

10 - أنظر الرابط التالي:
http://westafricanmanuscripts.org/arindex.html.

11 - Sammlung arabicher Handschriften aus Mauretanien.

12 - Rebstock, U., *Maurische Literaturgeschichte*, 2001. 3 Bände. 1788 S. Festeinband, Leinen, ISBN:978-3-935556-73-6 .

13 - http://www.brill.nl/arabic-literature-africa-volume-1-writings-eastern-sudanic-africa-c-1900.

14 - http://www.brill.nl/arabic-literature-africa-volume-2-writings-central-sudanic-africa.

15 - http://www.brill.nl/arabic-literature-africa-volume-3-writings-muslim-peoples-northeastern-africa.

16 - http://www.brill.nl/arabic-literature-africa-volume-4-writings-western-sudanic-africa.

17 - Monteil, V., « Les manuscrits historiques arabo-africains, *Bulletins de l'IFAN»*, Tome XXVII B, n° 3-4 1965.

18 - « In a very broad sense, Arabic writings of western Sudanic Africa may be classified under four headings: historical; pedagogical; devotional and polemical ».

Hunwick, J., «The Arabic Literature of Africa project», in Sh. Jeppie & S. B.

Diagne (eds.), The Meanings of Timbuktu, Cape Town, HSRC Press, 2008, p 314.

19 - بن الشيخ، س.، تحقيق جزء الأخلاق من كتاب «الطرائف والتلائد» للشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، ص 5.

20 - انظر: الشنقيطي، «الوسيط»، مرجع سبق ذكره، ص 241.

21 - العلوي، ع.: «نور الأقاح» ص 357 (طبعة فاس الحجرية).

22 - الديماني ع.: «ذات ألواح ودسر»، ص 38، (مخطوط عندي منه نسخة).

23 - نفس الإحالة السابقة، ص 39.

24 - ابن طوير الجنة، «رحلة المنى والمنة»، (مخطوط) 208 - 290.

25 - بن البرا، ي.، «ألفية ابن مالك وأثرها في الثقافة الموريتانية» (رسالة تخرج لنيل دبلوم الإجازة بالمدرسة العليا للتعليم) ص 25.

26 - الطالب، م.، «فتح الشكور» ص 208.